﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن
تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية : « قلنا اهبطوا منها جميعا » وفى سورة طه يقول جل جلاله « قال اهبطا منها جميعا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المطمورة فى ظهره . أمرالهم جميعا بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزىء من آدم . ولذلك لابد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين فى ظهره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لادم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين فى آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهبطا منها جميعا » لأن هنا بداية تحمل المسئولية بالنسبة لآدم . فى هذه اللحظة وهى لحظة الهبوط فى الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته فى الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردى . تكون المسئولية فردية . ولا يأتى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهبطا منها جميعا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا . . جمع . . نقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثانى هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم فى معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق .والشيطان فريق آخر . فكأن الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه فى الأرض . وفى المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفى قوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع فى المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه اذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى . . سيقبل توبته . .

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من أدم وحواء ان يسكنا الأرض . ويبدآ مهمتهما فى الحياة . والله يدلهما على الخير . مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » . . وهدى لها معنيان . . هى بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه.واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

الهدى هنا فى الآية الكريمة.. بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه . . والحزن أن يفوتك شىء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول فى هذه الآية : من مشى فى طريق الايمان الذى دللته عليه . وأنزلته فى منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير فى منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شىء أبدا .

وهذه تعطينا قضية مهمة فى المجتمع . الذى لم يرتكب أية مخالفة ..هل يناله خوف ؟ أبدا . . ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره .. ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والسائر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لى فيه . يجريه على خالقى . وهذا لابد أن يكون لحكمة . قد ادركها . وقد لا أدركها ولكنى اتقبلها . فالذى يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفى جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجىء ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولا يخاف عليهم . . وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذى يعيش طائعا لمنهج الله.. ليس هناك شىء يجعله يحزن . ذلك أن ارادته فى هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو فى سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو فى سلام مع نفسه . وفى سلام مع ربه . وفى سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذى لا يفسد فى الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع فى الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن اصابته أحداث ..أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها . . واياك أن تعترض على الله فى حكم .

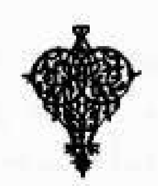
ولذلك يقول : احمدك ربى على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك . .

والانسان ينفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للاحداث وحدها وبين الانفعال للاحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنّا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (١)

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وأحمد وهذا لفظ البخارى

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الايمان . فالله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام .. فيكسر لك عظامك لكى يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك يؤلمك .



﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٣٩

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط الى الارض سيتلقى من الله منهجا لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا فى الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم فى الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم فى هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود.ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فأنت لا تحاول أن تستر شيئا الا اذا كان له وجود أولا . .

إن الشىء الذى لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ؛ لأنه ليس موجودا فى عقولنا . وعقولنا لاتفهم ولاتسع إلا ماهو موجود . توجد الصورة الذهنية أولا . . ثم بعد ذلك يوجدالاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شىء ليس له وجود فأنت لاتفهمه . ولاتستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فأنت لاتفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شىء لابد أن يكون قد وجد أولا . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة فى العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد فى الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلا قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل ان تخترع . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . اذن فكل هذا وجد أولا . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئا غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتا للايمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم الا اذا وجد المعنى فى عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل ان الله جل جلاله ـ وهو غيب عنا ـ اذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذى طاف الدنيا . والذى لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التى وضعها فى قلوبنا جميعا .

اذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا » والآية هى الشيء العجيب اللافت . فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والارض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية فى كونه وتخدم الانسان .

وهناك الآيات وهى المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبى مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شهدها . لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل . وهم يمرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه فى أياته . عن كيفية خلق الانسان . وعن منهج السماء للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وامراض وبالعذاب الاصغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

بها .. ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

والآيات فى الكون كثيرة . لو أننا التفتنا اليها لآمنّا . فهى ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « اولئك اصحاب النار » والصاحب هو الذى يألف صاحبه . ويحب أن يجلس معه . ويقضى أجمل أوقاته . فكان قوله تعالى: أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهى تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا .. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم فى كل مكان . وهى ليست مصاحبة كريهة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته فى الحياة الدنيا .. وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله واخلص له العبادة وطبق منهجه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة هود)

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين . وتحبهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهى تمتع المؤمن . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد . . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

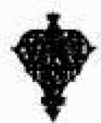
(سورة البقرة)

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم . نزل الى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج للسماء على الأرض . فكأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسى أصبح مصيره جهنم . بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائما . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطىء .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعش الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدى .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم ؟



﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ ﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بآدم ، وعداوة ابليس لآدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنهج فى إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل الى الأرض مسلحا بمنهج الله . ومحميا بالتوبة من أن يطغى . بدأت مهمة آدم على الأرض . .

ان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بنى اسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بنى اسرائيل من أكثر الانبياء الذين ارسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فينحرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا فى الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى فى مكان واحد . ليذوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بنى اسرائيل ذلك الحجم الضخم فى كتاب الله . وفى تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذى ارسله الله الى بنى اسرائيل من اولى العزم من الرسل . ولذلك فانك تجد فيه تربية اولا . وتربية ثانيا . . ولابد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بنى اسرائيل » فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : « يابنى آدم » واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يابنى آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل مايضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للانسان . فاذا تذكرنا نعم الله علينا .. فاننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا فى هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بنى اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذه من كلمتين : اسر و إيل . . (اسر) يعنى عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله فى العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فاذا نظرنا الى اسرائيل الذى هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيا لله . وعندما ينادى الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بنى اسرائيل . فانه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله فى حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرته الوفاة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتى بعد ذلك قول يعقوب .. واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هى الوصية التى وصى بها يعقوب بنيه .. فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لاشريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته . فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : « يابنى اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضله على الآباء علهم يتعظون أو يخجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تخجلون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله ... « يابنى اسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل . . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وانما يقول : « اذكروا الله » لأن بنى اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون فى معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله » لأننا نحن مع المنعم . بينما خطابه سبحانه لبنى اسرائيل : « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسى يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى ان يجعل معى الها كان أهلا أن أغفر له » [1]

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . ولذلك فان المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهى بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدوننى لذاتى . فتقول الملائكة : بل يعبدونك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوننى . . ومن عبادى من أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك اذا ابتلى عبدا فى صحته مثلا . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذى ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر الى قول الله فى الحديث القدسى : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى

(١) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث الحباب ورواه النسائى .

عنده » (٢) فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . . فلا ييأس فان الله تعالى يريده ان يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه فى معية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاتى . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتى التى أنعمت عليكم. ولقد جاءت النعمة هنا لأن بنى اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

«اذكروا نعمتى » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب للنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة . من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره. فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون فى بالنا دائما . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائما .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بنى اسرائيل أن يذكروا النعمة التى انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة فى كل شيء . فذكر الله يوجد فى القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصى وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتى » معناها اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربه . ما هو العهد الذى يريد الله من بنى

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

اسرائيل أن يوفوا به ليفى الله بعهده لهم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان فى مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لابد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذى خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبده ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى نجده يقول :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هى هذه القضية التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها فى هذه الآيات الكريمة ؟الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة . ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسي يقول : «إن تقرب الىّ شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الىّ ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة »[1]

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا أن المفتاح فى يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . واذا تقربنا الى الله تقرب الينا . واذا بعدنا عنه نادانا : هذا هو ايمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه فى قوله : « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أو هو العهد الذى اخذه الله على الانبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم اذا جاء رسول مصدق لما معهم فلابد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الانبياء جميعا العهد لرسول الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذى أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بنى اسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بألا يكتموا منها شيئا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتموا ما ورد عن الاسلام فى التوراة . وألا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة وفى الانجيل . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذى .

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل فى القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هى الرسالة الخاتمة . وانه لابد أن يؤمن به قوم كل نبى . هل هذا هو العهد الذى يوجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان كانت هى عهد ايمان الفطرة ، او كانت هى عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : « أوف بعهدكم » أى بما وعدتكم من جنة النعيم فى الآخرة . فالله سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

واقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل فى هذه الآية الكريمة . بالعهد الذى أخذه عليهم . وينذرهم أن رحمته هى للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .

وقوله تعالى : « وإياى فارهبون » أى أنه لا توجد قوة ولا قدرة فى الكون الا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .

